المحاضرة الخامسة :

التنظيم الديني في الجزائر خلال الحكم العثماني بين ١٦-١٩م

مقدمة

I. **العلماء في الجزائر خلال العهد العثماني**

II. **العلوم الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني**

III. **المؤسسات الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني**

IV. **التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني**

التنظيم الديني في الجزائر خلال الحكم العثماني بين ١٦-١٩م

المقدمــة

لقد كان للوجود العثماني في إيالة الجزائر العديد من التنظيمات والقوانين التي طبقتها الفئة الحاكمة من العثمانيين في الجزائر وكان لها عديد الآثار والنتائج فيما بعد، ومن بين هته التنظيمات التنظيم الجيني الذي كان ركيزة من ركائز الحكم وذلك للدور البارز الذي كان بين الحكام وعلماء الدين، ولقد كان اختيارنا لهذا الموضوع للدراسة رغبة في فهم هاته البنية التنظيمية الدينية التي كانت تسير الجزائر و إماطة اللثام عنها بمحاولة تقديم الجديد فيها و لو بالقدر القليل وهنا تمحورت **الإشكالية :**

ما هي المعالم العامة والخاصة للتنظيم الديني في الجزائر العثمانية؟ من هم أبرز العلماء الجزائريين خلال الحكم العثماني؟ وما هي العلوم الدينية التي كانت حاضرة آنذاك؟ وما هي أبرز المؤسسات التي تخدمها وكيف كانت حالة التصوف آنذاك؟

وللإجابة على هذه الإشكالية، تم وضع الخطة كما يلي :

-العلماء اندرج تحته علاقة العثمانيين مع المتصوفين

- العلوم الدينية

-أهم مؤسسات الدينية القائمة كالمساجد والزوايا والرباطات

-العلماء وعلاقتهم بالحكام وأهم العلماء المسلمين آنذاك

I. العلماء في الجزائر أثناء العهد العثماني

أولا : وظائف العلماء ومكانتهم

إن ظهور العلماء كفئة مميزة ليس وليد العهد العثماني، فقد بدأ كما نعلم منذ استولى على شؤون المسلمين حكام جهلة ليس لهم صلة بالحضارة الإسلامية، ولعل كون العلماء العثمانيين في الجزائر غرباء عن الثقافة العربية وعن تاريخ الحضارة الإسلامية هو الذي جعلهم كولاة وسلاطين يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة و اقتصاد وجيش وإدارة تاركين القضايا التي لها مساس مباشر بالدين في أيدي فئة أخرى هي فئة العلماء ، وهكذا بدؤوا في تطبيق القوانين الوضعية والشريعة الإسلامية وهو ما يسميه الأوروبيون الفصل بين الدولة والدين .

إن العلماء فئة احتكرت مجالات عديدة في المجتمع و هي الإفتاء و القضاء و التعليم والإمامة والخطابة، ورغم تعدد هذه المجالات فإنها كانت ضيقة ومحددة ولذا كثر التنافس فيها بينهم وكان هذا التنافس بدوره سببا في إضعاف دورهم السياسي لأن الباشوات والبايات كانوا يضربون هذا بذاك وكانت بعض الأسر العلمية تتميز بالثراء الغزير فلاحظ"التغروني" في أواخر القرن العاشر أن علماء الجزائر تغلب عليهم المادية ولاشك أن ذلك على وظيفة كان يتولاها العالم في الفتوى، ذلك أن الفتوى تحتاج إلى درجة عالية من العلم والتعمق في مسائل الفقه، ولما جاء العثمانيون أحدثوا تغيرات في هذا النظام فقد جعلوا الإفتاء وظيفة من الوظائف الرسم

[i]، وكان المفتي يتولى أيضا وظائف أخرى كما عرفنا مثل التدريس ووكالة الأوقاف والإمامة والخطابة وليس من الضروري أن يجمع المفتي كل هذه الوظائف دفعة واحدة فقد كان له أن ينيب غيره في بعضها.

ويأتي القضاء بعد الإفتاء في الأهمية بل أن وظيفة القاضي الحنفي في المرحلة الأولى من الوجود العثماني كانت هي الأساسية لأنها كانت وظيفة دينية و سياسية، وكانت الخطابة هي الوظيفة الثالثة في الأهمية وكانت مقاييسها صعبة لأن الجمهور يشترك في الحكم مثل الخطيب بخلاف المفتي والقاضي اللذان يتولون وظيفة سياسية– دينية، ومن شروط الخطيب الفصاحة وجودة الصوت وسعة الاطلاع والجرأة الأدبية،كذلك نذكر من الوظائف العامة وظيفة المدرس، وقد سبق لنا الحديث عنها غير أننا نود أن نلاحظ أنها كانت أحيانا تابعة لوظائف أخرى فالمفتي و الخطيب يتوليان التدريس و لكن العكس غير صحيح.

نلاحظ أن لقب العالم يطلق أيضا على بعض الفئات الأخرى في المجتمع و نذكر منها ثلاث أنواع: كتاب الإنشاء أو الخواجات و الثاني المثقفون الأحرار والثالث المرابطون.

و بالإضافة إلى المهمات التي ذكرناها كان العلماء يقومون بأعمال أخرى كالسفارة ومن أقدمها سفارة محمد بن علي الخروبي الطرابلسي إلى المغرب أكثر من مرة مبعوثا من باشاوات الجزائر إلى سلاطين المغرب لتأمين الحدود و تأمين العلاقات بين البلدين[ii].

ثانيا : علاقة العلماء بالحكام

كان العلماء يمثلون الرأي العام في الجزائر خلال العهد العثماني فهم رغم ترفعهم الطبقي كانوا على صلة بالناس في الدروس و مجالس الفتوى والقضاء والزوايا وخطب الجمعة ونحو ذلك، وكان بعض العلماء يجلسون في المقاهي ويختلطون بالناس في الأسواق أيضا، و كان بعضهم يكثر عليهم الازدحام في

الدرس والخطبة حتى يلفت النظر لنفسه فتخشاه السلطة، ومن جهة أخرى كان الناس يثقون في رجال الدين أكثر مما كانوا يثقون في رجال السياسة والحرب ولهذه المكانة التي كانت للعلماء كان العثمانيون يقدرونهم ويخشونهم ويتقربون منهم، وكانوا أحيانا يلجئون إليهم في موقف تأييد وغير ذلك، كما أن العلماء كانوا في حاجة إلى الباشاوات والبايات طمعا في مال أو وظيفة أو تأييد من منافسين وكانت هذه العلاقة في الواقع علاقة مطردة و يمكننا أن نقسم هذه العلاقة إلى طيبة وسيئة وقبل كل شيء نود أن نلاحظ أن حديثنا سينصب في الغالب على علماء الجزائر الجزائر أو من في حكمهم و ليس العلماء الذين كانوا يغدون مع الباشاوات من اسطنبول لمدة معينة فقد كان الحاكم العثماني ملتزما بمبدأ عريق عنده وهو أنه رجل محارب و سياسي و أن حروبه سياسته قائمة على الدفاع على الدين و الجهاد في سبيله، فهو يعترف أنه من رجال السيف و أنه لا شأن له بالطرف الأخر من القضية و هو الدين و العلم فهو ليس من رجال الدين كما أنه لا يريد منهم أن يتدخلوا في حروبه و سياسته و هو بالمقابل لا يتدخل في شؤونهم الدينية[iii].

ثالثا : العلماء المسلمون في الجزائر أثناء العهد العثماني

من الصعب تحديد عدد العلماء المسلمين الذين وردوا على الجزائر خلال العهد العثماني وبيان وظائفهم وذكر بلدانهم ونوع ثقافاتهم و أهدافهم فالعالم الإسلامي كان وطنا واحدا ينتقل فيه العالم من طرفه إلى طرفه الأخر دون أن يسأله أين هو ذاهب، وكان العلماء من حيث المبدأ لا وطن لهم فهم حيث مصالحهم الخاصة والعامة ومع ذلك فقد وجدت ظروفا ساعدت على هجرة العلماء من بلد إلى أخر،وقد عرفنا منها الظروف السياسية و الاقتصادية و طلب العلم، وكان العلماء يترددون على الجزائر ويعملون فيها حتى قبل مجيء العثمانين، فقد نزلها علماء الأندلس قبل نكبة١٤٩٢ وبعدها ورافقت بعض العلماء الحملات العثمانية على سواحل المغرب العربي كما رافقوا الباشاوات الذين عينوا من اسطنبول لإدارة البلاد

وتمثيل السلطان وكان بعض هؤلاء العلماء موظفين رسميا كالقاضي الحنفي، ولكن بعضهم كان يأتي دون تعيي، فهو باحث عن الفرص والمال أو عن نشر العلم والطرق الصوفية، وكان بعض العلماء يتعاطون أيضا التجارة في بلدانهم فجاءوا للجزائر إما للاستمرار في التجارة و إما للتدريس ، ولم يكن كل العلماء الذين وردوا على الجزائر على جانب كبير من العلم والنزاهة فقد كان فيهم المغامر والانتهازي ودعاة المذاهب السرية ، وكان بعضهم قد استقروا في الجزائر و لم يعودوا إلى بلدانهم فقد كانوا يتزوجون ويضلون مع أزواجهم و أطفالهم حتى بعد انتهاء الوظيفة[iv].

II. العلوم الدينية في الجزائر أثناء العهد العثماني

أولا : القراءات

لقد كان في الجزائر العثمانية عديد العلوم الدينية منها علم القراءات ورسم القران والجزائريون الذين تناولوا هذا الموضوع قلة نبيا، واحد هؤلاء القلة هو "محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي" مؤرخ بني زيان الذي ألف كتاب "الطراز في شرح الخراز" و أوضح أن سبب تأليفه يعود إلى أنه رأى من تناول نظم الشريشي المعروف بالخراز في علم الضبط أي ضبط القراءات و الرسم، إما اختصره اختصارا و إما أطال فيه إطالة مملة لذلك عزم هو على وضع شرح على نظم الخراز يكون وسطا بين الاختصار والإسهاب ويكون أنشط لقارئه و أقرب لفهم طالبه ، والمعروف أن الخراز قد وضع نظما تناول فيه علم الرسم سماه "عمدة البيان" وهو يعنى بالرسم الخاص برسم خطوط المصاحف كبيان الزائد و الناقص والمبدل وغيره، أما ما يرجع إلى علامة الحركة والسكون والشد والمد والساقط والزائد فهو ما يعرف بعلم الضبط، ولذلك جاء في نظم الخراز هذا البيت :

هذا إتمام نظم رسم الخط وها أنا اتبعه بالضبط

وفي المعنى الأخير ألف التنسي شرحه الذي نحن بصدده، ومن جهة أخرى وضع محمد بن احمد المصمودي رجزا في القراءات سماه "المنحة المحكية للمبتدى في القراءة المكية" تناول فيه أوجه الخلاف بين عبد الله المكي و قراءة الإمام نافع[v].

ثانيا : علوم التفسير

أما التفسير فقد ضعفت العناية به فكان بعض العلماء يتناولونه في مجالسهم و دروسهم، ولكن قلما ألقوا فيه ولولا تفسير عبد الرحمان الثعالبي المعروف بالجواهر الحسان لما وصل إلينا تفسير مكتوب من القرن التاسع وينسب للمغيلي تفسير بعنوان البدر المنير في علم التفسير ولكننا لا نعرف انه وصل إلينا منه شيء، وينسب أيضا لأبي جميل إبراهيم بن فائد الزواوي تفسير مكتوب للقران الكريم، غير أننا لا ندري إن كان هذا العمل قد أنقذ من الضياع ولاشك أن هناك تفاسير أخرى مكتوبة لم نسمع بها.

وما دام تفسير الثعالبي هو الوحيد الذي وصل إلينا من القرن التاسع فلنتوقف عند قليلا، فقد سماه الجواهر الحسان في تفسير القران وهي تسمية واضحة و بسيطة وانتهى منه في ٢٥ربيع الاول٨٣٣هـ كما جاء في آخر الجزء الثاني ومعنى ذلك أن الثعالبي قد عاش حوالي سنة بعد تأليفه، فهو إذن من أوائل مؤلفاته، ومما يستغرب في هذا الصدد هو جمع الثعالبي وهو في مقتبل العمر كل المعارف التي أوردها أو أشار إليها في كتابه، فرغم انه اعتمد فيه على تفسير ابن عطية فقد رجع لقريب من مائة تأليف، كما صرح هو بذلك ومن هذه المؤلفات تفسيري الطبري وقد تحرى الثعالبي الحقيقة و الرواية حتى أنه كان لا ينقل شيئا إلا بلفظ صاحبه[vi].

ثالثا : الفقه

لقد كان الاهتمام بالدراسات الفقهية منصبا على الفروع بدل الأصول، و أن هذا الاهتمام ب بالفروع تسبب أولا ضعفا في الدراسات العقلية عامة والعناية

بالكليات، وتسبب ثانيا في ابتعاد الدارسين عن الفقه أصلا والدخول في ركن التصوف والزهد ومعظم العلماء المؤلفين في القرن التاسع تركوا مؤلفات في الفقه وفروعه شرحا وحاشية وتقييدا، وليس من غرضنا سرد هذه الآثار التي تذكر عادة في كل ترجمة لكل عالم مثل ابن القنفذ والمغيلي والسنوسي،ومن الكتب التي سارت في ركب الفروع الفقهية كتب النوازل، وقد اشتهر في القرن التاسع مؤلفات في هذا الباب أحدهما يحي المازوني والثاني أحمد الونشريسي الذي أدرك أيضا القرن العاشر.

إن من بين العلماء الذين يعتبرون قمة في ميدان الفروع الفقهية هو أحمد الونشريسي فهو يشكل الجسر الذي عبرت به هذه الدراسات إلى العهد العثماني، ذلك أن كتابه هو المعيار بما احتوى عليه من فتاوى أهل الأندلس و المغرب وتونس والجزائر يعتبر موسوعة حية للفقه المالكي في المغرب العربي [vii]

III. المؤسسات الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني

أولا : المساجد

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة والتداخل بينهم ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضا، فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم كما أن الزوايا كذلك كانت، لكنها في الغابات كانت رباطا أو ملجئا أو مسكنا للطلبة والغرباء ومركزا لتلقين الأفكار واستقبال المريدين، كما أن حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها، فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المساجد فهو الذي تؤدى فيه الصلاة الجامعة أو الجمعة والعيدين ، لقد كانت العناية بالمساجد ظاهرة وبارزة في المجتمع الجزائري المسلم فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدنية دون مسجد، فقد كان المسجد هو ملتقى العباد ومجمع الأعيان وكانت تنتشر حوله المساكن والأسواق والكتاتيب وكان المسجد كذلك هو الرابطة بين

أهل القرية والمدينة والحي لأنهم يشتركون جميعا في بنائه كما هم جميعا يشتركون في أداء الوظائف فيه، فقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى فالغني المحسن هو الذي يقوم عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته، ولكن أعيان القرية أو الحي يساهمون بالتبرعات ونحوها ولا يتعدى مجموع السلطات الحاكمة في المجال مجهود الأفراد، فالدولة لم تكن مسئولة على بناء المساجد وإذا بنى أحد الباشاوات مسجدا فانه يبنيه من ماله الخاص[viii].

ثانيا : الزوايا و الرباطات

من أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الزوايا والطرق الصوفية وكثرة المباني (الزوايا ونحوها) المخصصة له، ففي المدن والأرياف في الجبال الشاهقة عاش معظم المتصوفين يلقنون أتباعهم الأفكار و الأوراد مبتعدين عن صخب الحياة، وكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء فهو الذي يحميها من العين ومن الغارات ومن نكبات الطبيعة ومن طمع الطامعين وهذا حسب اعتقادهم فهناك صلحاء تلمسان والجزائر ومدينة قسنطينة وبجاية والمدية ..ففي مدينة الجزائر العائلة التي كانت تعج بالزوايا و الأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين، فبالإضافة إلى زاوية وضريح عبد الرحمان الثعالبي هنالك زاوية الولي دادة وغيرها ...

و لقد لعبت الزاوية دورا هاما وايجابيا في الريف أكثر منه في المدينة، ففي بداية العهد العثماني كانت الزوايا عبارة عن رباطات أو نقط أمامية ضد الأعداء والمرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين وقدموا لهم المساعدات الأساسية فجندوا من ورائهم الشعب وجمعوا لهم المؤن والمعدات ورفعوا الروح المعنوية للمحاربين ولكن

الدوافع الجهادية كانت تضعف بالتدريج بعد القضاء على الخطر الخارجي الداهم [ix].

ثالثا : المدارس

لقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لايخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الأرياف بل أنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان، وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباطات التي تحدثنا عنها وكانت الأوقاف والصدقات تلعب دورا مهما في انتشار المدارس ونشر التعليم .

بالإضافة إلى المدارس الابتدائية كان بها على الأقل خمس مدارس ثانوية وعالية وهذه المدارس هي التي أشاد بها الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل والكاتب المغربي الحسن الوزان "ليون الإفريقي".

لقد كانت وظيفة المدرسة الابتدائية هامة فهي تثقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام على نمط اجتماعي محدد وهي تقوم بتحفيظ القران الكريم الذي هو أساس الثقافة الإسلامية وهي التي تعلم مبادئ العلوم والقراءة والكتابة فيحفظون لسانهم من العجمة ويتوحدون في التفاهم والتخاطب حيثما كانوا وهي أيضا تساهم في إعطاء الطفل رصيدا من المعارف التي تساعده على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها عندما يبلغ عادة الرابعة عشر من عمره والى جانب ذلك كانت المدرسة الابتدائية تعد شعبا متعلما محصنا لا يوجد فيه إلا عدد قليل من الأميين، حتى إن المدرسة لم ترق بالتعليم ولم تساير العصر ولكنها كانت تؤدي الوظيفة الأساسية في المجتمع خصوصا رفع الأمية [x].

IV. التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

أولا: موقف العثمانيين من التصوف

رحب بعض المرابطين بالعثمانيين لأن هؤلاء الأخيرين شعروا أن اقرب الناس إليهم هم رجال الدين والمتصوفين، ومنذ بداية العهد العثماني لاحظنا أن العثمانيين كانوا يطمئنون إلى المرابطين أكثر من غيرهم فيلجئون إليهم ويتبركون بهم ويطلعونهم على خططهم ونحو ذلك مما يدل على الثقة المتبادلة بين الطرفين .

وقد شاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق ومن المغرب وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون ينشرون أفكارهم و أورادهم بين الناس، لكن بعض رجال الدين عارضوا بشدة تسلط العثمانيين بينما وقف بعضهم وسطا تارة يؤيدونهم كمسلمين مجاهدين ماداموا عادلين وتارة ينصحونهم عندما ينحرفون أو يسيئون الحكم ، ومن الصنف الأول أحمد بن ملوكة التلمساني فقد قيل إنه اطلع على ما ارتكب عروج عند احتلال تلمسان من فضائح وبعد خروج عروج إلى جبال بني سناسن خاف أهل تلمسان من عودته و الانتقام منهم من جديد فلجئوا إلى الشيخ أحمد بن ملوكة واشتكوا له ما وقع بهم وما يخشون وقوعه فانقبض الشيخ واشتد غضبه حتى ضرب الأرض بيده وهو يدعوا "اللهم لا تعده إلى تلمسان"[xi].

ثانيا : الطرق الصوفية

كان معظم المرابطين الجزائريين قبل العهد العثماني من إتباع الطريقة الشاذلية، وكان تأثير هذه الطريقة يأتي عن طريق طلب العلم في المغرب الأقصى و تونس أو عن طريق الحج، ذلك أن مثقفي الجزائر كما مر بنا كانوا كثيرا ما يقصدون

طلب العلم خارج بلادهم التي كانت تفتقر إلى المعاهد العليا والجامعات، و أثناء إقامتهم في فاس أو تونس أو القاهرة أو حتى في الحرمين ودمشق وبغداد، كانوا يأخذون العهد من شيوخ الطرق وهو أمر كان شائعا عندئذ ولا حرج فيه، بل كان يعتبر جزءا من ممارسة العلم ولا شك أن المغرب الأقصى كان مركزا عاما لنمو الطرق الصوفية بعد سقوط الأندلس وتحول كثير من علماء الدين و أصحاب التصوف إلى هناك، ففي المغرب ظهرت مدارس صوفية عديدة سنية وغير سنية، وكان بعض أصحابها يتدخلون في السياسة والحكم وبعضهم قد اتخذوا الخلوة واعتزلوا الناس، ومن جهة أخرى جاء من تونس عدة طرق و لاسيما الشابية التي هزت الشرق الجزائري بالحروب والدروشة الصوفية، كما كان المشرق الإسلامي مصدرا لتصدير المذاهب الصوفية الأربعة من البلاد العربية أو الواردة من فارس والهند واسطنبول.

ومع ذلك لا نعرف أن البكداشية و النقشبندية قد انتقلتا إلى الجزائر حتى بعد دخول العثمانيين والطريقة الوحيدة التي وجدت أرضية صلبة في الجزائر هي القادرية، وهي التي وصلت قبلهم ولكنه ازدهرت أثناء حكمهم غير أن هذا لا يعني عدم وجود التأثير الطرقي الآخر[xii]

الخلاصة

من خلال تحليلنا لما سبق نستنتج أن:

- الوجود العثماني في الجزائر كان قائم منذ البداية على نصرة الإسلام والمسلمين، وعليه فإن التنظيم الذي كان ينتهجه الحكام العثمانيون ركز كثيرا على رجال الدين والتصوف وذلك للدور الذي لعبوه في التواصل مع الرعية.
- أن رجال الدين والعلماء حظوا بمكانة راقية من طرف الرعية وحتى من جانب الحكام حيث قربوهم من سلطتهم ومنحوهم الوظائف المختلفة في الدولة كالقاضي والمفتي والمعلم وقياد الرباطات.

- إن المؤسسات الدينية التي سادت في إيالة الجزائر عكست مدى اهتمام الحكام والرعية بها والدور الروحي الذي كان يقربها منها، إن الإنتاج الديني الذي قام بتأليفه علماء الدين تنوع واختلف من علامة إلى أخر فهذا يهتم بعلوم القراءة وذلك بالتفسير إلى غير ذلك من العلوم، ومن أبرز العلماء عبد الرحمان الثعالبي.
- انتشرت ظاهرة التصوف في الجزائر قبل و أثناء الوجود العثماني حيث شجعت السلطة على الاهتمام بالتصوف وذلك نظرا للهالة الاجتماعية والسياسية التي يتمتع بها رجال التصوف والدين، برغم المؤاخذات التي شابت هؤلاء العلماء وجعلتهم يخطئون في عقائدهم.